

القدس وفلسطين في التاريخ

أحمد صِدقي الدجاني

إن دراسة تاريخ القدس، وتاريخ فلسطين بصورة عامة، تقدم لنا الأجوبة الصحيحة الوافية على تساؤلات مطروحة، بفعل المقولات الصهيونية عن القدس وفلسطين. ويمكننا أن نجمل هذه التساؤلات في ثلاثة عناوين، نحاول تسليط الضوء عليها.

أولاً : ما هي الحقائق الخاصة بشعب فلسطين العربي ؟
ما هي أصوله ؟ وكيف تحققت ملامحه ؟ وما هو عطاؤه الحضاري ؟
وما مكان اليهود الفلسطينيين منه ؟ وما مكان التراث اليهودي في فلسطين
من تراثه ؟

ثانياً : ما هي الحقائق الخاصة بالقدس وبتاريخها عبر العصور ؟

ثالثاً : كيف وفّر شعب فلسطين في ظل الحكم الإسلامي حرية العبادة لجميع
المؤمنين في القدس، وخدم الأماكن المقدسة وحماها ؟

إن تاريخ القدس وفلسطين موغل في القدم. فهو لا يقف في مداه عند بدء عصر الكتابة في فلسطين، أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، بل يتجاوزه إلى عصور ما قبل التاريخ التي شهدت ظهور الإنسان العاقل في فلسطين. وهذا التاريخ هو ثمرة تفاعل الإنسان في فلسطين مع بُعد الزمان وبعد المكان.

إذا تعرفنا على بعد المكان المتمثل في رقعة الأرض المباركة التي تحمل اسم فلسطين، نجد أن هذه الرقعة تقع في الغرب من قارة آسية، بين خطي عرض 30 - 29 و 15 - 33 شمالاً، وبين خطي طول 15 - 34 و 40 - 35 شرقي غرينتش. وهي القسم الجنوبي من بلاد الشام، وفي موقع القلب من الوطن العربي. وتبلغ مساحتها 27.009 كلم² أو 10.431 ميلاً مربعاً. وهي تشمل منطقة ساحلية تطل على البحر الأبيض المتوسط، ومنطقة جبلية، ومنطقة صحراوية وقد تفاعلت في هذه الرقعة عوامل عدة.

أولها : الموقع الاستراتيجي الذي تحتله فلسطين بين القارات الثلاث آسية وأفريقية وأوربة، والذي يجعل منها حلقة اتصال ومركزاً لتفاعل الثقافات.

ثانيها : الوضع الجغرافي لفلسطين وبلاد الشام عامة، حيث يتقطع سطح الأرض فتضيق البيئة ولا تتسع اتساعاً كافياً لنشوء سلطة قوية، وحيث تتناوب الأراضي المنخفضة والأراضي المرتفعة وتحاذي بعضها بعضاً من الشمال إلى الجنوب، ويتجاوز السهل مع الجبل ومع الصحراء، وتتوالى الفصول الأربعة كما هو الحال في حوض البحر الأبيض المتوسط عموماً.

ثالثها : احتواء فلسطين على نمطي البداوة والحضارة، مما جعلها مسرح تفاعل متواصل بين البدو الرحّل. فيه التعاون وفيه التدافع، الأمر الذي ربط تاريخها بتاريخ موجات تحول البدو إلى الزراعة.

رابعها : مجاورة فلسطين لأقدم مركزين حضاريين عرفهما الإنسان، وهما الحضارة السومرية البابلية في بلاد الرافدين شرقاً، والحضارة المصرية في وادي النيل في الجنوب الغربي. وهكذا دخلت فلسطين ضمن المجال الحضاري لحضارات المنطقة، وتعرضت في الوقت نفسه لتأثيرات من جهة البحر حيث كريت واليونان وإيطاليا، ومن جهة البر حيث فارس والهند شرقاً. وقد أصبحت بفعل ذلك جزءاً من طريق دولي قديم، مبدؤه في دلتا النيل ونهايته شط العرب. وله عدة تفرعات تنتهي على البحر المتوسط⁽¹⁾.

ولقد قامت مدينة القدس في موقع متميز من أرض فلسطين، جعل منها سرّة الوطن المقدس وملتمى أقطاره⁽²⁾. الأمر الذي حدا ببعض العلماء الأقدمين إلى اعتبارها «مركز الكوكب الذي نعيش على سطحه». وقد بنيت القدس على مرتفعات أربعة تحيط بها مجموعة وديان. ويدور في فلك القدس عدد من المدن والقرى. ولموقعها هذا أهمية استراتيجية وأهمية دينية.

وننظر في بُعد الزمان فنجد أن تاريخ القدس وفلسطين هو تاريخ متصل على مدى العصور، حافل بأحداث كثيرة. ويمكننا أن نقسم هذا التاريخ إلى قسمين رئيسيين، تصل بينهما الانطلاقة العربية بالإسلام في القرن الهجري الأول - القرن السابع الميلادي - وذلك لما كان لهذا الحدث من تأثير على القدس وفلسطين والمنطقة العربية عموماً، بحيث يمكن أن نميز بين ما قبله وبين ما بعده. وقد مرّ تاريخ القدس وشعب فلسطين في كل من هذين بعدة أدوار، وكان بصفة عامة تاريخاً متنوعاً محافظاً على وحدته.

(1) يُراجع بشأن جغرافية فلسطين : فيليب جتي، تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان، ج 1 دار الثقافة، بيروت، 1958 - مصطفى مراد الدباغ بلادنا فلسطين، ج 2 دار الطليعة، بيروت 1975.

(2) إسحاق موسى الحسيني، عروبة بيت المقدس، مركز الأبحاث، بيروت.

أولاً : الحقائق الخاصة بشعب فلسطين

(أ) أصوله وملاحه :

بدأت ملامح شعب فلسطين في عصور ما قبل التاريخ مع ظهور الإنسان العاقل على أرض فلسطين. وقد اكتشفت آثار هذا الإنسان العاقل في عدة مواقع. واتضحت هذه الملامح مع تدرجه في سلم الحضارة مروراً بالعصر الحجري القديم وبالعصر الحجري الوسيط الذي استمر نحو ستة آلاف عام اعتباراً من الألف الثاني قبل الميلاد، وشهد نشوء حضارة النطوف، وبالعصر الحجري الحديث الذي دام ألفي سنة وشهد تقدماً ملموساً في الزراعة وتربية الحيوان وصناعة الخزف، وبالعصر الحجري النحاسي بعد اكتشاف المعدن الذي شهد حضارتي الغول وجازر، وشهد ازدهار مدينة أريحا أقدم مدن العالم⁽³⁾.

واتضحت ملامح شعب فلسطين أكثر فأكثر، بعد الهجرات الرئيسية التي جاءت إلى فلسطين والمنطقة، من قلب الجزيرة العربية ومن أطرافها، وحملت معها العموريين والكنعانيين، ثم العبرانيين والأراميين. وكانت فلسطين والهلل الخصب عموماً منطقة جذب سكاني مرتبطة بجزيرة العرب التي هي مركز طرد سكاني. وتعرف هذه الهجرات بالهجرات «السامية» أو «العربية». وقد كان للهجرة الكنعانية أثر كبير في طبع البلاد بطابعها الذي حافظت عليه منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. وعرفت فلسطين باسم «أرض كنعان»، مع أجزاء من سورية ولبنان. وكان هذا هو أول اسم لفلسطين. وبقي الكنعانيون في فلسطين منذ دخولهم إليها، واندجت فيهم موجات الهجرة التالية. وتميزت فلسطين بمقدرتها على امتصاص القادمين الرحل، أو نصف

(3) محمد أديب العامري، القدس العربية، دار الطباعة والنشر، عمان، 1971.

الرحل بتشجيعهم على أن يصبحوا مستقرين. ويضرب المؤرخ فيليب حِتّي مثلاً على ذلك بالعبرانيين :

«فقد أتى الشعب الذي عُرف بهذا الاسم بشكل متجولين ومغامرين ومرترقة وجنود، لا ارتباط لهم، ثم استقر بالتدريج بين السكان الذين كانوا أرقى منه، فتعلم منهم حِرث الأرض وبناء المنازل وممارسة فنون السلم، وأهم من ذلك القراءة والكتابة. واتخذ الكنعانية لغة لهم. وأصبح وراثاً المظاهر الأساسية للحضارة الكنعانية»⁽⁴⁾.

وانصهرت في بوتقة شعب فلسطين جماعات من شعوب أخرى مرت بالبلاد أو اقتربت منها مثل الحثيين والحيوريين، أو استقرت بها مثل الفلسطينيين الذين أعطوا أرض كنعان اسمهم. وجميع هذه الجماعات هندية - أوربية في الأصل، حسب رأي بعض المؤرخين. كما انصهرت في بوتقة شعب فلسطين جماعات من الشعوب التي حكمت البلاد من قُرُس ويونان، ورومان غربيين ورُوم شرقيين، أثرت البقاء في فلسطين واتخاذها وطناً.

استكمل شعب فلسطين صورته، وتحددت هويته، وتبلورت شخصيته في أعقاب الفتح العربي الإسلامي لفلسطين في القرن الهجري الأول - السابع الميلادي -. ودخلت فلسطين والمنطقة العربية عموماً مرحلة جديدة من تاريخها، لم تكن مقطوعة عن المراحل التي سبقتها، ولكنها تميزت بما شهدته من تطور بلغت فيه درجة النضج والتبلور. وعاشت فلسطين كجزء من المنطقة تحولا عظيماً حدث فيها خلال ذلك القرن. وحمل الفتح العربي الإسلامي معه إليها موجة جديدة من عرب الجزيرة العربية، وغدت اللغة العربية لغة شعب فلسطين، وحدث التحول من اللغة

(4) فيليب حِتّي، مصدر سبق ذكره، الفصل الخامس عشر.

الآرامية إليها بسهولة، لأن اللغتين تنحدران من أرومة لغة واحدة، واعتنق عدد كبير من الشعب الدين الإسلامي في المدن أولاً ثم في الريف. وكان اسم «العرب» قد تردد في تاريخ فلسطين عبر مراحل المتتالية مع الهجرات التي جاءت من الجزيرة العربية. واستمرت فلسطين عربية طيلة حِقَبِ التاريخ التالية مع تعرضها أكثر من مرة للغزو التوطيني⁽⁵⁾.

(ب) عطاؤه الحضاري :

على مدى هذه الرحلة عبر العصور، بنى شعب فلسطين حضارته التي هي جزء من حضارة المنطقة. وأسهم في إغناء التراث الإنساني، وتدرج في سلم الحضارة، وخاض عملية التفاعل الحضاري مع حضارات أخرى.

لقد أقام شعب فلسطين - كما سبق أن أشرنا، حضارة النطوف والغسول وجازر، في عصور ما قبل التاريخ وبنى مدينة أريحا ومدناً أخرى. ثم شيد شعب فلسطين الكنعاني منذ أقدم العصور التاريخية على فلسطين أرض كنعان، حضارة متقدمة ازدهرت فيها الزراعة حتى عُرفت بلادهم بخيراتها وثمراتها واشتهرت بأنها «تفيض لبناً وعسلاً». وقامت فيها الصناعة على نطاق واسع. وانتعشت التجارة وظهرت أقدم أجدية. وشيدت فيها المعابد وانتشرت الديانة الكنعانية. وقامت بين شعب فلسطين وبين الشعوب المجاورة في وادي النيل وبقية سورية وبلاد الرافدين، علاقات وثيقة حفظتها لنا الآثار الباقية. وحين جاء الفلسطينيون، أسهموا في هذه الحضارة ببناء مدنها الخمسة في الساحل، وبتعليم صهر الحديد، وبتشجيع الترحال في أسفار بعيدة، ولم يلبثوا أن اندمجوا في شعب فلسطين الكنعاني، وتبنوا حضارته، وقد حدث الأمر

(5) أحمد صدقي الدجاني، تاريخ فلسطين عبر العصور، مجلة شؤون فلسطين، مجلد 1977.

نفسه حين جاء العبرانيون الذين اتبعوا في مراحل حياتهم الأولى النموذج الحضاري الذي كان يمثله الكنعانيون، وأخذوا من كنعان لغتها وأبجديتها، فتركوا لهجتهم السامية القديمة، واتخذوا لهجة شعب فلسطين. وتعلموا منه الزراعة فانتقلوا من البداوة والرعي إلى الزراعة والاستقرار. واقتبسوا طقوس الكنعانيين وفنهم. وتزاوجوا معهم فأخذوا من عاداتهم. وأسهموا في هذه الحضارة في مجال هام هو المجال الروحي. وتجلى هذا الإسهام في العهد القديم الذي حفظ تاريخ المعلمين العبرانيين وأنبياء بني إسرائيل. وهكذا تكرر مع العبرانيين ما حدث للشعوب والجماعات الأخرى التي استوطنت فلسطين وانصهرت في بوتقة شعبها.

تابع شعب فلسطين العيش في ظل حضارته إبان الحكم الفارسي لبلاده الذي دام أكثر من قرنين (586 - 332 ق.م). وخاض تجربة التفاعل الحضاري مع الحضارة الفارسية. ويمكن القول إنه حافظ على حضارته وبقيت اللغة الآرامية لغة التجارة والمعاملات والمحاطبة إلى جنب اللغة الفارسية اللغة الرسمية. وظلت الحضارة تتألف من عناصر سامية عربية، تشكّل الآرامية والكنعانية عنصرها السائد مع ظهور بعض التأثيرات الفارسية عليها. عاش شعب فلسطين في بداية الحكم اليوناني لفلسطين (332 - 64 ق.م) تجربة الأسكندر في تحقيق التفاعل الحضاري بين الحضارة الإغريقية والحضارات الشرقية، من خلال امتزاج الأفكار والمؤسسات اليونانية والشرقية. وعمل الحكم اليوناني في فلسطين - بطلميأً كان أو سلوقيأً - على انتشار «الهليينية». ونشط الحكّام اليونانيون خلال هذا العصر الهيليني في تأسيس المدن لتكون مراكز للثقافة اليونانية. وكان سكانها من الجنود اليونانيين بالدرجة الأولى. وقد تزاوجوا مع أهل البلاد، وانضم إليهم مع الزمن سكان مولدون وأصليون اقتبسوا المظاهر الخارجية للهيلينية. وتفاوت انتشار الهيلينية من منطقة إلى أخرى، وبرز مثقفون من أهل البلاد أسهموا في إغناء هذه الثقافة مثل انطيوخس العسقلاني، والشاعر ملاجر. ومع ذلك بقيت اللغة الآرامية هي لغة الشعب الدارجة. واستمر الشعب محافظاً على

كنعانيته في طرق معيشتة. واحتفظ الريف على الخصوص بلغته وعاداته وطريقة حياته. ونجحت الحضارة الكنعانية خلال عملية التفاعل الحضاري مع الحضارة الأفريقية، في المحافظة على مكانتها فأعطت وأخذت. وقد لخص بُريستد حصيلة التأثير اليوناني على البلاد بقوله : «إن هذا التأثير لم يَسِرْ على السواء في جميع أنحاء البلاد، بل كاد ينحصر في المدن فقط. ولم يتأثر به كثيراً سكان القرى والدساكر الذين آثروا البقاء على عاداتهم السامية القديمة، والتكلم بلغات آبائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وأفكارهم»⁽⁶⁾.

بقي الوضع على حاله إبان الحكم الروماني لفلسطين (64 ق.م - 640 م)، الذي تبنى الثقافة الهيلينية. وعاش شعب فلسطين الحدث الكبير، وقد تمثل في ظهور السيد المسيح عليه السلام الذي دعا إلى صحة الله ومحبة الإنسان. ودخلت فلسطين وسورية بصورة عامة في القرن الرابع الميلادي في مرحلة حضارية جديدة، هي المرحلة البيزنطية التي اتحدت فيها المسيحية مع الهيلينية الوثنية. وقد تحول معظم اليهود من شعب فلسطين الى المسيحية، واعتنق الدين الجديد من كان وثنياً. ولم يعرف عن شعب فلسطين والسوريين عامة «أنهم - كما يقول فيليب حَتّي - فقدوا طابعهم القومي أو أضاعوا لغتهم أو أهملوا أديانهم، أو سلكوا مخلصين المنهج اليوناني والمنهج الروماني في الحياة. فالحضارة الهيلينية لم تكن يوماً أكثر من طلاء خارجي ولم تؤثر في غير النخبة من أهل المدن. أما سواد السكان، فقد كانوا يعتبرون الحكام غرباء عنهم. واستفحل هذا الجفاء بين الحاكم والمحكوم بداعي سوء الحكم وفداحة الضرائب. وغالب الظن أن السوريين من أبناء القرن السابع اعتبروا العرب المسلمين أقرب إليهم عنصراً ولغة وربما ديناً أيضاً من أسيادهم البيزنطيين المقوتين».

(6) بريستد، العصور القديمة، ترجمة داود قزبان، بيروت، 1936، ص 315.

(7) فيليب حَتّي، مصدر سبق ذكره، ج 2 ص 14.

شارك شعب فلسطين بعد الفتح العربي الإسلامي في بناء الحضارة العربية الإسلامية التي أصبحت حضارة زاهرة على مدى القرون التالية. وكانت اللغة العربية هي أداة التعبير في هذه الحضارة. وقد حكم الإسلام نظرتها إلى الحياة. وحفظت القدس واحداً من أجمل الأوابد التي بنيت في ظل الحضارة الإسلامية، وأروع رموزها، وهو المسجد الأقصى الذي قام في بقعة مقدسة منذ أقدم العصور، الأمر الذي حدا بالبعض أن يعتبره من الين أقدس الأماكن على وجه الأرض، وقد تمثلت الحضارة العربية الإسلامية ما أنجزته الحضارات التي سبقتها في المنطقة، وازدهر فيها الشعر والعلوم الدينية والفلسفة، والفن المعماري والزراعة والصناعة، والتجارة والعلوم، من طب وهندسة وفلك ورياضيات وموسيقى. وأسهم شعب فلسطين بنصيب في هذا الازدهار. وأقبل على الدخول في الإسلام خلال العصر العباسي، وأصبحت اللغة العربية هي اللغة السائدة.

بقيت فلسطين جزءاً من الدولة العربية التي انتقلت عاصمتها إلى بغداد في العصر العباسي. وأصبحت جزءاً من دولة أحمد بن طولون في مصر، حين نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي. ثم حكمها الأخشيديون الذين خلفوا الطولونيين وتلاهم الفاطميون. واعترى فلسطين الضعف الذي أصاب الدولة العربية الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي بفعل عوامل محددة، منها فقدان الحكومة المركزية، وانحطاط منزلة الحكام، والخلل في العلاقات الاقتصادية، والإصراف وعلة التقليد. وأصاب الحضارة العربية الإسلامية بفعل هذا الضعف ما يصيب الحضارات من انحطاط وأفول. وفي تلك الفترة جاء الغزو الفرنجي للمنطقة، مركزاً على فلسطين في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، بعد أن أعلن البابا «أربان الثاني» عام 1095 م دعوته لشن الحروب التي عرفت في الغرب باسم الحروب الصليبية. وكان الدافع الرئيسي للقيام بهذا الغزو اعتبارات مادية يتعلق بعضها بأوضاع أوربا آنذاك، واتخذ الدين وسيلة لتهيئة النفوس له. وقد استمرت حروب الفرنجة هذه قرابة القرنين.

وسجل التاريخ على الغزاة عنفهم وفتكهم بسكان البلاد. واستطاع صلاح الدين الأيوبي أن يحرر القدس بعد أن انتصر في موقعة حطين الفاصلة (583 هـ. = 1187 م). وقدم مثلاً رائعاً في البطولة والشيم والقيم الخلقية. وطرد السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وابنه الأشرف بقايا الفرنجة من فلسطين. وشهدت البلاد على مدى القرنين تجربة في الاحتكاك الحضاري⁽⁸⁾ وسجل عن هؤلاء الفرنجة «أنهم كانوا مدعاة لخيبة الأمل في مآتي الفكر ومآثر الحضارة». وكانوا من حيث فاعليتهم الحضارية أبعد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق. وقد تأثروا بالحضارة العربية الإسلامية، وتعرفوا على جوانبها المختلفة. وترك لنا أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» صورة لما شاهده من صلات قامت بينهم وبين أهالي البلاد. وتعرضت فلسطين من الغزو الفرنجي، إلى الغزو المغولي الذي أوقفه انتصار قُطُز وَبَيْبَرُس في معركة عين جالوت الفاصلة سنة 1260 م. واستمرت بعد هاتين الغزوتين، جزءاً من الدولة العربية الإسلامية التي حكمها المماليك، ثم جزءاً من الدولة العثمانية منذ عام 1516 م. وقد هاجمها نابليون بونابرت بعد أن احتل مصر وارصد عند أسوار عكا آخر القرن الثامن عشر الميلادي، وبقيت تحت الحكم العثماني الإسلامي حتى احتلها البريطانيون عام 1917 م. إبان الحرب العالمية الأولى. وشاركت البلاد في القرن التاسع عشر باليقظة العربية الحديثة، وبدأت تتصدى لأخطار الغزو الصهيوني الذي بدأ أواخر ذلك القرن.

يمكننا أن نصل من التعرف على بعد الزمان في فلسطين ودراسة تاريخ شعب فلسطين إلى إجابة محددة للسؤال المطروح حول ملامح شعب فلسطين واثرائه.

لقد كان تاريخ شعب فلسطين متصلاً منذ أقدم العصور، وهو جزء من تاريخ سورية والمنطقة بصورة عامة. وظهرت ملامح شعب فلسطين بوضوح في العصور

(8) فيليب حيتي، مصدر سبق ذكره. ج 2 ص 250.

التاريخية شعباً كنعانيّ الطابع، عربيّ الأصل، يعيش في أرض فلسطين التي عرفت باسم أرض كنعان. وقد تكلم هذا الشعب في غاليته اللغة الكنعانية واللغة الآرامية، واللغة العبرانية واللغة العربية، وكلها لغات «سامية» تعود، كما يقول بروكلمان، إلى لغة أم أقرب ما تكون إلى اللغة العربية الفصحى. واندجت في هذا الشعب جماعات من شعوب مرت بفلسطين، فصغت بصغته وتمثلت حضارته وأسهمت فيها. وكان بين شعب فلسطين منذ أقدم العصور، قبائل عربية وثيقة الصلة بجزيرة العرب، فضلاً عن الكنعانيين والعموريين والآراميين الذين جاءوا من هناك، والعبرانيين الذين جاءوا من جنوب العراق. وواضح أن فلسطين مثلت مركز جذب بالنسبة لجزيرة العرب. واكتملت عروبة فلسطين منذ القرن الهجري الأول، كاستمرار لكنعانياتها في القسم الأول من تاريخ فلسطين. وانتهى لهذه العروبة شعب فلسطين بمسلميه ومسيحييه ويهوده. وساهم شعب فلسطين بكافة طوائفه في الحضارة العربية الإسلامية.

(ج) مكان اليهود من شعب فلسطين :

كذلك نصل إلى إجابة محددة حول التساؤل عن مكان العبرانيين وبني إسرائيل واليهود الذين عاشوا على أرض فلسطين من شعب فلسطين. فالعبرانيون هم أولاد إبراهيم عليه السلام، وكان هذا الاسم يُطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد، وهو يتضمن مدلول البداوة ويشمل قبائل عربية مختلفة منها قبيلة إبراهيم. والإسرائيليون هم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الذي لقّب بإسرائيل، وهم قبائل أقامت في أرض كنعان وأسست مملكتين : إسرائيل في الشمال، ويهودا في الجنوب. ودُمرت المملكتان، ثم أعيد تأسيس يهودا لفترة محدودة وإليها ينسب اليهود. وقد حمل اسم يهودي كلّ فرد من شعب يهودا رجوع من السّبي، وحمله الذين تهوّدوا واعتنقوا الديانة اليهودية من أقوام آخرين، وهو في الأصل اسم أحد أولاد يعقوب. ولقد جاءت هذه الأقوام إلى فلسطين في ثلاث هجرات، واندجت في شعب فلسطين. كانت الهجرة الأولى في

نحو الألف الثانية قبل الميلاد، وفيها جاء إبراهيم الخليل. والهجرة الثانية ترتبط بيعقوب وأولاده. والهجرة الثالثة هي هجرة موسى في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهي عند عدد من العلماء بداية تاريخ بني إسرائيل الحقيقي.

لقد أسس هؤلاء العبرانيون مملكة على أجزاء من فلسطين، بعد أن اقتبسوا فكرة الملكية من الكنعانيين. وانقسمت المملكة إلى مملكتين لم تُعمّرا طويلاً. وأخذ العبرانيون حضارة الكنعانيين، فتعلموا لغتهم واقتبسوا طقوسهم وعاداتهم وأساليب حياتهم. واسهموا في هذه الحضارة في المجال الروحي من خلال كتابة «العهد القديم». وتعرض بعضهم للسبي على يد «نبوخذ نصر» الذي دمر القدس عام 586 ق.م. وعاد بعض يهود السبي البابلي مع بداية الحكم الفارسي لفلسطين. وانتشر الدين اليهودي في فلسطين إبان الحكم اليوناني لها، حين أكره اليهود المكابيون بعد انتصارهم في ثورتهم، سكان جنوب فلسطين من الأدوميين على التهود والاختتان حوالي سنة 126 ق.م. في عهد يوحنا هيركانوس الأول. كما أكرهوا سكان الجليل الأعلى من الايطوريين العرب على التهود والاختتان. وحين ظهرت المسيحية في فلسطين وانتشرت تدريجياً، بدأت اليهودية بالانحسار، وذلك إبان الحكم الروماني لفلسطين. وأصبحت الجماعة اليهودية في فلسطين أقلية بعد العدد الكبير الذي فقدته خلال ثورتي عام 66 م. وعام 132 م، وبفعل تحوّل بعض اليهود إلى الدين المسيحي. حتى إذا جاء الحكم البيزنطي الذي تبنى المسيحية، تقلصت الجماعة اليهودية إلى حد أدنى، وأصبحت فلسطين مسيحية الطابع بعد أن دَانَ معظم سكانها بالدين المسيحي، وتحول غالبية اليهود من شعب فلسطين إلى المسيحية. وحين دخلت فلسطين في الدولة العربية الإسلامية، استكملت في القرن الثاني الهجري مقومات عروبتها، وأصبح الإسلام دين غالبية شعبها. وبقيت جماعات من هذا الشعب تدين بالمسيحية أو اليهودية. وهكذا يتضح لنا كيف أن المسلمين من شعب فلسطين جاءوا من نسل أجدادهم الذين دانت

غالبيتهم بالمسيحية، وقبل ذلك باليهودية⁽⁹⁾. وقد عاش هؤلاء الأجداد على أرض فلسطين، وجاء بعضهم إليها من جزيرة العرب.

إن يهود فلسطين هم جزء من شعب فلسطين، وتاريخهم يقع في دائرة تاريخ شعب فلسطين. وهم غير اليهود الأوربيين الذين ظهرت الحركة الصهيونية في أوساطهم، والذين هم من أصل خزري في غالبيتهم⁽¹⁰⁾ ويمكننا أن نقرر باطمئنان أن التراث اليهودي في فلسطين، من ثم، هو جزء من تراث شعب فلسطين تماماً، كالتراث المسيحي والتراث الإسلامي فيها، وأيضاً كالتراث الكنعاني قبل ذلك. وإن ادّعاء الصهيونية امتلاك التراث اليهودي في فلسطين لا يجب أن يدفع بعضنا إلى التنكر له. ويلفت النظر أن المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن تاريخ العبرانيين والإسرائيليين واليهود في فلسطين نظروا إلى هذا التراث اليهودي هذه النظرة الصحيحة. كما يلفت النظر أيضاً أن شعب فلسطين تبنّى تراثه وحافظ عليه وتمسك به.

ثانياً : الحقائق الخاصة بالقدس وبتاريخها عبر العصور :

ارتبطت القدس بشعب فلسطين منذ أقدم العصور. فقد سكن الإنسان في منطقتها منذ عصر ما قبل التاريخ. وهناك آثار اكتشفت له فيها تعود إلى العصر البلستوسيني، وآثار فن العهد البابليويثي. وقد استقر المناخ فيها وأصبح كما هو اليوم في العهد الميسوليثي، وهناك موقعان في المدينة يرتبط وجودهما بتلك الفترة. ويشار إلى ستة عشر موقعاً تعود إلى العهد النيوليثي الذي شهد حدوث الثورة الزراعية⁽¹¹⁾.

(9) أحمد صديقي الدجاني، ملاحظات على تطور حياة يهود فلسطين حتى الفتح العربي الإسلامي، بحث مقدّم لمؤتمر بلاد الشام بعمّان، 1980.

James Park : A History of Palestine From 135 to Modern Times, London 1949

(10) آرثر كوستلر، القبيلة الثالثة عشرة، دمشق.

Avi – Yonah : Jerusalem, Prehistoric Period (11

ظهرت القدس كمدينة في بدايات العصر البرونزي، حين بناها الكنعانيون مع مجموعة مدن أقاموها على طريق المياه بين الشمال والجنوب. واختاروا لها موقعاً متميزاً على مرتفع الضهور الذي توجد على مقربة منه عين الماء جيون. وكان بناؤها حوالي الألف الرابعة ق.م. وخدم غرضاً دفاعياً وآخر دينياً. وقد بنوا فيها هيكلًا لمعبودهم الأعلى «سالم». وكان ملك القدس هو كاهن الإله الأعلى. ومن هنا اكتسبت المدينة قدسيتها التي استمرت بعد ذلك لأسباب أخرى⁽¹²⁾.

عُرفت القدس أول ما عُرفت باسم «سالم» الجَدَّ المؤسَّس أو الإله الأعلى. وقد كانت «مملكة مدينة» كغيرها من المدن الكنعانية. وعُرف من أسماء ملوكها «قدوم سالم» و «ملكي صادق» «وأدونني صادق» «وأدونني بازق». وأول ذكر لها ورد في نصوص الحضارة المصرية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، بصورة «يوروشاليم» ومعناه إلى الأرجح «مدينة سالم».

وَوَرَد ذكر القدس في رسائل تلّ العمارنة في القرن الرابع عشر ق.م. باسم «يوروسالم» وفي النقوش الآشورية باسم «أوروسليم». وأقَدَم اسم لها في «العهد القديم» هو «شاليم». وقد ورد في سفر التكوين بمناسبة قدوم أبرام العبداني إلى أرض الكنعانيين، شعراً على أعدائه، إذ خرج الملوك لاستقباله ومنهم ملكي صادق ملك شاليم، كما ورد ذكرها في سفر يشوع باسم «أورشليم»، وكان ملكها آنذاك هو أدوني صادق، وفي سفر القضاة حين حارب بنو إسرائيل الكنعانيين. وجاء ذكرها في سفر القضاة مرة أخرى باسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين العرب الذين كانوا يعيشون فيها. وورد في «العهد القديم» أيضاً اسم «صهيون» الذي دل بدايةً على جزء من المدينة اليبوسية كان يقوم فيها الحصن الذي استولى عليه داوود حين انتزع المدينة

(12) حول تاريخ القدس القديم، يراجع الحسني، عروبة بيت المقدس. والعامري، القدس العربية.

من اليبوسيين. ولم يلبث أن سمي ذلك الجزء باسم «مدينة داوود» وأصبح يطلق على المدينة ككل مع مُضي الزمن. وسميت المدينة أيضاً «أريئيل» في سفر أشعيا. وعُرف التل الصخري الذي بنى عليه سليمان الهيكل باسم «موريا»، وجاء ذكره في أخبار الأيام الثاني. ومع تعدد الأسماء فإن اسم أُورشليم هو الذي كان شائعاً منذ فتح داوود المدينة إلى منتصف القرن الثاني للميلاد، حيث أطلق عليها الامبراطور الروماني إيلياؤس هادريان قَوْس اسمه الأول بعد أن أعاد بناءها فعرفت بإيليا. وهو الذي هدم مدينة أُورشليم عام 135م، بعد أن هدمها يتطوس قبل ذلك عام 70م. وقد ظل اسم إيليا سائداً نحو قرنين إلى أن جاء الامبراطور قُسطنطين فأعاد إليها اسم أُورشليم. وبقي اسم إيليا مستعملاً حتى كان الفتح العربي الإسلامي.

اشتهرت المدينة بعد الفتح باسم بيت المقدس. ووردت لهذا الاسم صور مختلفة منها البيت المقدس، وبيت القدس، والقدس الشريف والمدينة المقدسة. ولقبت المدينة بألقاب منها دار السلام ومدينة السلام وقرية السلام⁽¹³⁾.

واضح أن تعدد أسماء القدس مرتبط بتاريخها الطويل الحافل، وبأهميتها المتميزة. ولقد كانت كل هذه الأسماء - عدا اسم «إيليا» - أسماء كنعانية عربية تحمل مدلولاً واحداً في معظمها. فما «أورسالم» إلا «أورشليم» إلا «القدس». وحتى اسم «إيليا» الروماني جرى تعريبه حين تداوله شعب فلسطين، مثلما عربوا اسم «نابلس» وغيره. وقد حملت هذه الأسماء في أذهان الناس دلالة على قدسية المدينة وكونها بيتاً مقدساً.

على مدى القرون التي مضت على بناء «أورسالم». مرت المدينة المقدسة - وهي قلب فلسطين - بجميع المراحل التي مرت بها فلسطين. ويمكننا، ونحن نستحضر تاريخها،

(13) الحسيني : مصدر سبق ذكره.

أن نقف عند أهم الحقائق البارزة فيه، فنذكرها بإيجاز، وننظم منها عقداً يُبرز وحدة هذا التاريخ.

- وضع بداية أن شعب فلسطين الكنعاني العربي هو الذي أسس المدينة في زمان بعيد في الماضي، وهو الذي أطلق عليها اسمها. وقد أقام فيها بيتاً للعبادة يذكر فيه اسم الله فأصبحت قبلة ومحجاً. واستمرت هذه صفةً للمدينة مع تنامي الرسالات السماوية وانتقال شعب فلسطين والمنطقة من الديانة الكنعانية إلى اعتناق اليهودية فالنصرانية فالإسلام.

- نزل إبراهيم عليه السلام في منطقة القدس فرحب به «بنوحت» أصحاب الأرض. واختار أبو الأنبياء فلسطين وطناً له، فأصبح هو وآله جزءاً من شعب فلسطين. ويهمنا هنا أن نلاحظ نظرة الفلسطينيين عبر العصور، وخصوصاً في العصر الإسلامي، إلى هذه الحقيقة. فقد سلّموا بها وأبرزوها. ونضرب مثلاً على ذلك ما أورده الحنبلي في «الأنس الجليل». فبعد أن يقصّ هجرة إبراهيم «من وطنه في ذات الله حفظاً لإيمانه»، «أوحى الله إليه أن انزل جدي...، فنزل بها... ولم يزل حتى دخل مغارة حيرون، فنودي يا إبراهيم سلّم على عظام أبيك آدم. وحين ولدت له هاجر ابناً سماً إسماعيل أي «مطيع الله»، وأقام إبراهيم صلة وثيقة بين فلسطين والحجاز والقدس ومكة. «وارسل الله إسماعيل، إلى قبائل اليمن وإلى العماليق. وزوج إسماعيل ابنته من ابن أخيه العيص بن إسحق (عسو بلغة ترجمة التوراة). ولما ماتت سارة بعد وفاة هاجر، تزوج إبراهيم الخليل عليه السلام امرأة من الكنعانيين وولدت منه ستة، وهم يقشان وزمران ومدان ومديان ويشق وشرخ. ثم تزوج امرأة أخرى فولدت له خمسة بنين، فكان جميع أولاد إبراهيم ثلاثة عشر ولداً مع إسماعيل وإسحاق. فكان إسماعيل أكبر أولاده، فأثر إسماعيل أرض الحجاز، وإسحاق أرض

الشام، وتفرق سائر ولده في البلاد والله أعلم»⁽¹⁴⁾ ونجد هذه النظرة عند المسعودي وغيره، وعند أبناء شعب فلسطين الذين نظروا إلى إبراهيم كواحد من أجدادهم. ونؤكد على هذه النظرة في معرض التنبيه على ما أورده بعض الكتاب المحدثين، وهم يناقشون المقولات الصهيونية عن وعد الله لإبراهيم أن يُعطي أرض فلسطين لنسله، فتحدثوا عن غربة إبراهيم، ونظروا إلى العبرانيين وكأنهم لم يصبحوا جزءاً من شعب فلسطين، وتعاملوا مع التراث اليهودي وكأنه ليس جزءاً من تراث شعب فلسطين.

- ازدهرت الحضارة الكنعانية في فلسطين، وكانت القدس أهم مراكزها. وقد بلغت المساحة التي تشغلها المدينة خلال الألف الثاني قبل الميلاد حوالي أربعين دونماً. وأحاط اليبوسيون مدينتهم بسور. وحين مرّ إبراهيم بها حوالي سنة 1900 ق.م. كانت مدينة متكاملة ذات قاعدة ملكية وهاكل دينية ومركز مقدس. وقد تأثر العبرانيون بحضارة الكنعانيين وتمثلوها.

- كانت يَبُوس مدينة مزدهرة حين دخل بنو إسرائيل فلسطين بقيادة يَشُوع حوالي 1150 ق.م. وتشير التوراة إلى المدينة حين تتحدث عن رجل إسرائيل وامرأته وغلّامه، كانوا على سفر فأدركهم الليل، «وفيا هم عند يَبُوس قال الغلام لسيده : «تعال نيل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، فقال له سيده، لا تَمِل إلى مدينة غريبة لا أحد منها من بني إسرائيل».

- احتلّ داوود المدينة التي كانت تعرف آنذاك باسم يَبُوس في القرن الحادي عشر ق.م. وقد وُفّق في اختياره لها عاصمةً للملكة لأنها حصينة ويسهل الدفاع عنها. كما أنها تقع خارج المراكز القبلية الأصلية وتتحكم في طريق رئيسي. واشتهر داوود المحارب

(14) مجير الدين العلمي الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ص 41، مكتبة المحتسب، عمّان، 1973.

بإنجازات أخرى منها القصر الذي شيده في القدس، وبناء معاريون من «صُور» أرسلهم صديقُه الملك الفينيقي حيرام، ولداود نسبت «المزامير»، وورث ابنه سليمان الملك من بعده وحكم ثلاثين سنة. وبنى هيكلًا وتحصينات وثكنات. وكانت مملكته تدين بالولاء لمصر. وقد اختلطت بتاريخه الأساطير. وانقسمت المملكة في عهد خلفه إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا. وبقيت المدينة - وأصبحت تعرف بأورشليم - عاصمة مملكة يهوذا. ولم تعمّر المملكتان طويلاً، فانتَهت مملكة إسرائيل على يد سرجون الثاني ملك آشور عام 722 ق.م. وانتهت مملكة يهوذا على يد نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني عام 586 ق.م. وخربت القدس وسبي عظماء البلاد ونقلوا إلى بابل. وتجدر الملاحظة هنا أن الطابع السياسي لفلسطين بقي على حاله أثناء وجود المملكتين وبعد زوالها، من حيث تعدد الحكام والتفاعل مع مصر جنوباً وسورية شمالاً. وقد ظل العرب البيسويون يعيشون في مدينتهم المقدسة - ويسميهم العهد القديم أحياناً «الإسماعيليين» - وتفاعلوا مع الهجرات العبرانية وامتصوها.

- شهدت القدس وفلسطين منذ القرن العاشر قبل الميلاد، وحتى الفتح العربي الإسلامي تتابع حكم دول وإمبراطوريات تداولت الأيام بينها فيها. فقد حكمها المصريون في عهد شيشق لفترة قصيرة. ثم حكمها الآشوريون، فالكلدانيون، فالفرس فالإغريق - بطالسة وسلوقيين - فالرومان، فالروم البيزنطيين. وحفلت هذه العهود بأحداث وأحداث، تجلت من خلالها قدرة شعب فلسطين على التكيف وعلى الجمع بين الأصالة والتجديد بالحفاظ على هويته، وبالتفاعل مع التجارب الحضارية الأخرى، وتبادل التأثير معها.

وقد شهدت القدس إبان حكم الفرس رجوع بعض يهود السبي من بابل إليها. وفي عهد داريوس أعيد بناء الهيكل على نفقة الدولة سنة 515 ق.م. بعد صعوبات كثيرة. وفي عهد ارتخشنا (465 - 424 ق.م.) عاد فريقان آخران من اليهود المسييين برئاسة نحميا وعازرا اللذين قالاً بوجود طلاق الزوجات غير اليهوديات واعتبار أبنائهن غير شرعيين.

عاشت القدس في العهد اليوناني البطلمي جواً من التسامح. وفي عهد بطليموس فيلادلفيوس محب العلم ترجمت التوراة إلى اليونانية على يد سبعين عالماً يهودياً دعاهم إلى مصر للقيام بهذه المهمة. وحاول الحكام البطالسة نشر المدينة اليونانية في القدس وفلسطين. وكانت حماسة السلوقيين لهذه المهمة أشد انسجاماً مع سياستهم التقليدية التي اعتبرت الهلينية القاسم المشترك الذي يلتقي عليه جميع رعايا دولتهم. وقد ذهب أنطيوخس في محاولته أبعد من المعتاد، ففرض عبادة زفس أولمبيوس على السكان. فعمد السكان إلى قرنه بشخصية إلههم بعل، وألبسوه ثياباً نصف عربية وأسبغوا عليه من صفاتهم وأقاموه في معابد تشبه معابدهم. ثم تفجرت معارضة بعضهم ممن يدين باليهودية ثورة في عام 168 ق.م. فاستباح أنطيوخس مدينة القدس وأمر بإلغاء الدين اليهودي، الأمر الذي أدى إلى انتشار ثورة المكابيين التي بدأت دينية وتطورت إلى ثورة سياسية، وتوجهت في وقت واحد ضد القوات الحكومية وضد أنصار الثقافة الهلينية من اليهود، وقد انتصرت في المجالين فسيطر التعصب على اليهود المكابيين، وأكره الأدوميين سكان جنوب فلسطين والإيطوريين سكان الجليل على اليهود، وخيروهم بين ذلك أو الإبادة. وتزامنت هذه الثورة مع ثورات القبائل العربية على الدولة السلوقية التي اشتد ضعفها⁽¹⁵⁾.

أصبحت القدس منذ عام 64 ق.م. تحت حكم الرومان. وكانت مركز مقاطعة «اليهودية». وتولت الأسرة الأدومية حكم اليهودية سنة 37 ق.م. باسم الرومان. وقد شهد حكمهم حدثاً كبيراً هو مولد عيسى عليه السلام وظهور الدين المسيحي. وشهدت القدس رسول السلام وهو يدعو إلى محبة الله ومحبة الإنسان، ويؤكد بتعاليمه على وحدة الإنسانية وخدمة الإنسان عوضاً عن المبالغة في الطقوس الخارجية. وقد انتشر الدين الجديد بين عدد من فلاحي فلسطين الذين كانوا يدينون

(15) الدجاني : ملاحظات على حياة اليهود عبر العصور.

باليهودية، ثم شق طريقه بين كافة سكان فلسطين تدريجياً. وانطلق من القدس إلى شق أنحاء الأمبراطورية الرومانية.

شهدت القدس خلال تلك الفترة أيضاً ثورة اليهود «الفريسيين» ضد الرومان عام 66 م. تعبيراً عن رفضهم محاولات الحكم فرض الهلينية عليهم. وقد استمرت هذه الثورة أربع سنوات. وكانت لها أسبابها الدينية وأسبابها الاجتماعية. وأصبحت القدس خالية من اليهود إثر قمع القائد تيتوس للثورة. وتركز بقية اليهود في ساحل فلسطين. وانخط شأن اليهودية كدين خصوصاً مع انتشار المسيحية. وثار يهود فلسطين مرة أخرى في عهد الأمبراطور هدریان (117 - 138 م) بقيادة باركوخبا سنة 132 م (وكان بعضهم قد عاد لسكن القدس) ففضى هدریان على الثورة عام 135 م، وهدم القدس وأعاد بناءها وأطلق عليها اسم إيليا كابيتولينا وسمى البلاد فلسطين السورية⁽¹⁶⁾.

ازدهرت القدس في العهد البيزنطي الذي بدأ باعتناق الأمبراطور قسطنطين المسيحية عام 312 م وبنائه عاصمة للملكة في موقع بيزنطة القديم عام 330 م. وقد قامت أمه هيلانة بزيارة القدس وتلا ذلك بناء كنيسة القيامة فيها وكنيسة المهد في بيت لحم. وما أسرع ما انتشر بناء الكنائس والأديرة في فلسطين وبلاد الشام ومصر عموماً. وانتشرت المسيحية بعد أن كانت قد تعرضت للاضطهاد في عهود بعض الأباطرة الرومانيين. وقد ظهرت الرهبنة في القرن الرابع الميلادي، وأصبحت الكنيسة أعظم مؤسسات العصر. وشهدت القدس الانشقاقات الدينية بين المذاهب المسيحية. كما شهدت محاولات الساسانيين الفرس احتلال البلاد في مطلع القرن السابع الميلادي. وقد طردهم هرقل من القدس وأعاد إليها الصليب الذي أخذه منها⁽¹⁷⁾. وتحدث المصادر اليهودية عن مساعدة اليهود للفرس عند قدومهم، وعما تسميه خيانة

16) يراجع فيليب حنّی.

17) أسد رستم : الروم وصلاتهم بالغرب، ج 1، دار المكشوف، بيروت 1955.

القدس لليهود. كما تحدث عن انتقام هرقل من اليهود والعقاب الذي أنزله بهم، ودخول عدد منهم في الدين المسيحي. وهذا يفسر لنا ما جاء في العهد العمري بشأن طلب الكنيسة ألا يسكن أحد من اليهود القدس.

فتح العرب المسلمون القدس سنة 638 م. واشترط سكانها أن يكون تسليم المدينة للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فجاءها عمر وتسلم مفاتيحها من صفرونيوس بطريك القدس. وأعلى عهده المشهور لأهل «إليا» القدس سنة 15 هـ: «أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا أحد من اليهود...»⁽¹⁸⁾ وقد شهد على هذا العهد من كبار الصحابة خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. ويلاحظ المؤرخون أن الفتح العربي الإسلامي للقدس وفلسطين وبلاد الشام عموماً تحقق بيسر حتى إن البلاذري سماه «الفتح اليسير». وقد علّل فيليب حِتّي ذلك بقوله الذي سبق أن أوردناه «وغالب الظن أن السوريين من أبناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين أقرب إليهم عنصراً ولغة، وربما دينا من أسياهم البيزنطيين»⁽¹⁹⁾.

بدأت القدس بالفتح العربي الإسلامي لها، مرحلة جديدة من تاريخها، بقيت خلالها فلسطينية عربية كما كانت، واستمرت مركزاً روحياً في ظل الحكم الإسلامي لها. واتصل تاريخها على مدى القرون الثلاثة عشرة التالية، وإن تعرضت خلال قرن واحد منها لحكم الفرنجة.

وأصبحت القدس مركزاً من مراكز الحضارة العربية الإسلامية، وقد أقام عمر بن الخطاب مسجداً فيها. وبلغ من احتفائه بالصخرة المشرفة أن أزال ما تراكم عليها من

(18) وَرَدَ العهد العمري في الطبري وكتب أخرى.

(19) حِتّي : مصدر سبق ذكره.

تراب. وأقام عليها مصلًى. وسكن القدس بعد الفتح العمري جماعة من صحابة رسول الله ﷺ، ونزلها آخرون للعبادة والتبرك وزيارة مقدساتها. وفي العهد الأموي بنى عبد الملك بن مروان مسجد الصخرة، ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين. ثم توالى الخلفاء والأمراء فجددوا وزخرفوا حتى أضحى المسجد من أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه البسيطة. وبرز في القدس علماء أجلاء، نسب بعضهم إليها من أمثال المقدسي صاحب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». وأصبح المسجد الأقصى جامعة يؤمها طلاب العلم ويعلم فيها علماء أجلاء.

عانت القدس معاناة شديدة إبان الغزو الفرنجي لها عام 1099 م. وسالت في المسجد والمدينة دماء عشرات الألوف من أبنائها. وحين حررها صلاح الدين أعطى الفرنجة نموذجاً رائعاً في الرحمة والتسامح. وقد سجل ستانلي لين پول في تاريخه لصلاح الدين : «إذا كان أخذ القدس هو الحقيقة الوحيدة التي نعرفها عن صلاح الدين، فإن ذلك كاف لإثبات أن صلاح الدين هو أكثر المنتصرين فروسية، وأعظمهم قلباً في زمانه، ولعله في كل زمان»⁽²⁰⁾.

أمر صلاح الدين بإعادة أبنية القدس إلى حالها القديم، وطهر المسجد والصخرة من الأقدار، وصلى فيها، ونصب منبراً في المسجد كان قد أمر بصنعه نور الدين محمود. وعمل صلاح الدين على توسيع المسجد الأقصى. وتدقيق نقوشه، وزوده بالمصاحف والكتب، فعاد إلى المسجد رونقه وبهاؤه وجلاله.

ازدهرت القدس من جديد في ظل الحكم الإسلامي. وبرز فيها عدد من العلماء الأجلاء. واستطاع المالك أن يحموها من غارات المغول الذين اجتاحتوا العراق

(20) ستانلي لين پول : صلاح الدين، ترجمة دار القدس - الحسيني : جامعة المسجد الأقصى.

وسورية. وقد كان لانتصار الظاهر بيبرس على المغول في معركة عين جالوت الفضل في حماية القدس وباقي فلسطين ومصر من الدمار.

اهتم الظاهر بيبرس ومن تلاه من حكام المماليك بعمارة القدس فجدد بيبرس ما تداعي من قبة الصخرة، وقبة السلسلة وزخرفهما. وبني خلفاؤه عددا من الآثار البديعة في المدينة. وازدهر التصوف فيها خلال ذلك العهد. وقد زارها عدد من الرحالة المسلمين ووصفوا حياة سكانها من ابن بطوطة إلى ناصر خسرو وعبد الغني النابلسي. كما مر بها بنيامين الطليطلي اليهودي في القرن الثاني عشر الميلادي. وكتب مجير الدين الحنبلي كتابه «الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل».

أصبحت القدس سنجقاً من ولاية دمشق إبان الحكم العثماني، وتحولت في الفترة الأخيرة إلى متصرفيته تتبع الباب العالي مباشرة. واهتم السلطان سليمان القانوني (1520 - 1560) بعمارة القدس فجدد السور ورمم القلعة وعمر بركة السلطان وقبة الصخرة وجدران الحرم وأبوابه. وبني مقام النبي داوود. واهتم عدد من خلفائه بإقامة منشآت في القدس.

ولم تلبث المدينة أن عانت خلال القرنين التاليين من التخلف الذي أصاب الدولة العثمانية.

وأصبحت القدس في القرن الماضي مركزاً من مراكز اليقظة العربية الحديثة. وظهر فيها عدد من الرجال الذين ساهموا في النهضة العربية الفكرية والسياسية. واشتدت عليها الاطماع الاستعمارية منذ الحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر. وابتليت باستهداف الغزوة الصهيونية والاستعمارية لها. ولم تلبث أن احتلها اللّبيي أواخر عام 1917 وأصبحت تحت الانتداب البريطاني الذي مكن للغزوة الصهيونية

أن تقيم «إسرائيل» وتغتصب جزءاً كبيراً من المدينة عام 1948. وفي عام 1967 احتلت إسرائيل القدس الشرقية وبدأت المدينة عهداً من المعاناة وعهداً من المقاومة للاحتلال.

إن هذه اللوحة لتاريخ القدس عبر العصور تؤكد حقيقة ارتباط شعب فلسطين بالقدس وبفلسطين. وتبرز بوضوح أن القدس هي قلب فلسطين وهي وطن شعبها الذي تواصل تاريخه فيها منذ أقدم الأزمان، وإن القدس كانت قبلة للمؤمنين ومحجاً لهم تماماً كما كانت مطمعا للغزاة.

ثالثاً : حرية العبادة في ظلّ الحكم الإسلامي :

يجمع المؤرخون على أن شعب فلسطين استطاع في ظل الحكم الإسلامي أن يوفر للمؤمنين في القدس جواً من التسامح الرائع، وأن يضمن لهم حرية العبادة في أماكنهم المقدسة، وأن يقوم بحمايتهم وباستضافتهم.

لقد رأينا كيف أرسى عهد عمر أساس هذا التسامح انطلاقاً من روح التسامح التي بشر فيها الدين الإسلامي : «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». ويلاحظ المؤرخون أن شعب فلسطين وسكان القدس رحبوا بالحكم العربي الإسلامي. وكانت غالبيتهم تدين بالنصرانية وقلة منهم تدين باليهودية. وقد تعاون السامريون اليهود مع العرب المسلمين عند الفتح. وكتب يهودي عرّاف عن العصر الإسلامي الأول فجعل ملاكاً يقول لكاهن : «لا تخف يا بن يهود، فالخالق تبارك اسمه لم يقم مملكة إسماعيل إلا ليخلصكم من هذا الشر (أي بيزنطة)»⁽²¹⁾. ورحب النصاري بالحكم

(21) برنارد ليويس : العرب في التاريخ ص 78.

العربي الإسلامي. وتجاوبوا مع سياسة معاوية السمحة، وكتب مؤرخ مسيحي سرياني بلسان حالهم «ولهذا فقد خلّصنا الإله المنتقم من قبضة الروم على يد العرب. وليس النفع الذي جنيناه من خلاصنا من قسوة الروم وحقدهم بالقليل»⁽²²⁾.

حرص الحكم الإسلامي على تنظيم أمور الملل والنحل، فأصبح للجاعتين اليهودية والنصرانية تنظيمهما. وكان المسلم ينظر إلى القدس نظرة روحية يعبر عنها قول عطاء الخرطاني «بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته الأنبياء، ووالله ما فيه شبر إلا وقد سجد فيه نبي»⁽²³⁾. وقد احترم شعب فلسطين المسلم الديانتين السماويتين الآخرين انطلاقاً من إيمانه بكتب الله ورسله.

بقي عدد اليهود ضئيلاً جداً في فلسطين بالنسبة إلى مجموع السكان. ويلاحظ باركس «أن الحكام المسلمين لم يرفضوا في أية فترة السماح لليهود من بلاد أجنبية أن يدخلوا فلسطين وقيموا فيها». والحق إن شعب فلسطين رحب دوماً بالحجيج من المؤمنين وفتح دراعيه للمضطهدين المسلمين. وفرق بين هؤلاء وبين الغزاة الطامعين.

لقد سمح الحكم الإسلامي لليهود بزيارة القدس ثم بالعمل فيها وسكنهاها. وخدم بعضهم في المسجد الأقصى كصناع يعملون «القناديل والاقداح والثريات وغير ذلك، لا يؤخذ منهم جزية... جارياً عليهم وعلى أولادهم أبداً». وتعرض يهود القدس لمعاناة شديدة إبان الغزو الفرنجي حيث ذبح الفرنجة عدداً كبيراً منهم حين احتلوا القدس، مع من ذبحوا من أهاليها المسلمين. ويسجل المؤرخون «أن صلاح الدين كان رحماً بهم حين استعاد القدس». وكان يهود القدس وفلسطين قد ساهموا إبان ازدهار

(22) برنارد ليويس : العرب في التاريخ ص 79.

(23) الحسيني : عروبة بيت المقدس.

الحضارة العربية الإسلامية بإغناء التراث اليهودي. ويقول حرانزل في كتابه تاريخ اليهود : «إننا مدينون لليهود فلسطين في الفترة بين القرن السادس والقرن العاشر. فإذا كنا نقرأ التوراة بسهولة هذه الأيام ونصب في قلوبنا أجمل الصلوات فإن الفضل لهم. وقد أعطاهم مجئ «المحمّدين» دفعة جديدة من الحياة»⁽²⁴⁾.

وتناقص عدد اليهود في القدس بعد غزوة الفرنجة حتى لم يبق منهم فيها إلا اثنان عام 1267 م.

وبعد ستين عاماً توطنت فيها طائفة صغيرة، وتراوح عدد اليهود في القدس خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بين 250 و1500. وذلك بعد أن لجأ إليها بعض يهود إسبانيا عام 1492 بعد أن حلت بهم وبالمسلمين نكبة الأندلس. وحين زار القدس الربّي الإيطالي «أوباديه دامبير تيفوسد» عام 1488 وتعرف على أحوال الجماعة اليهودية فيها سجل شهادته قائلاً : «لا يضطهد العرب اليهود في هذه البلاد. لقد سافرت فيها طويلاً وعرضاً ولم أجد من يعترض طريقي من سكانها. إنهم كرماء ولطفاء مع الغرباء وخاصة مع أولئك الذين لا يعرفون لغتهم. ولا يزعجهم أن يروا مجموعة يهود متجمعين معاً»⁽²⁵⁾. وقد تولت أسرة مقدسية مسلة خدمة مقام النبي داوود منذ أوائل العهد العثماني⁽²⁶⁾. ويلفت النظر أن يهود القدس وفلسطين بدأوا يشكون من المضايقة حين قوي النفوذ الأوروبي في القدس خلال القرن التاسع عشر، وجاء إليها عدد من المبشرين المسيحيين الأوروبيين الذين جعلوا همهم تنصير اليهود. وقد انشغلت جمعية لندن للتبشير بهذا الموضوع وأرسلت عام 1820 مبشراً سويسرياً فكان أن جابهه يهود القدس بمعارضة شديدة⁽²⁷⁾. بينما تكشف الوثائق العثمانية كيف وقرّ الحكم الإسلامي لليهود فلسطين حرية العبادة فازدهرت مدارسهم في طبرية

(24) Solomon Grayzel, A history of the Jews, P. 243 Amentor Book 1968

(25) مصدر سبق ذكره، Park, P. 148

(26) هي أسرة الداودي الدجاني، وقد أصدر السلطان سليمان القانوني فرماناً للشيخ أحمد الدجاني بهذا الشأن.

(27) Uriel Heyed, Ottoman Documents on Palestine, Oxford 1960

وصَفَد. وسمح لعدد من المضطَّهدين الذين فرّوا من الأندلس أن يقيموا في الدولة العثمانية ومنها فلسطين، فأقاموا فيها واندمجوا في شعبها.

لا نودُّ أن نسترسل في الحديث عن هذا التسامح الديني الذي ساد في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي وفي ظل الحكم الإسلامي فنعرض لحياة النصارى من شعب فلسطين في ظله. ذلك أن أمره معروف تتضمنه كل صفحة من صفحات تاريخ فلسطين. ونكتفي بالقول إن شعب فلسطين بمسليمه ومسيحيه ويهوده يُمثل جيداً روح التسامح هذه، فحكمت سلوكه نحو إخوته من الطوائف الأخرى، ونحو الطوائف من المؤمنين الذين جاءوا إلى القدس. ويلفت النظر أن شعب فلسطين بغالبية المسلمة ومسيحيه ويهوده تصدى للغزاة الأجانب الذين طمعوا في وطنه، مفرقاً بينهم وبين الحجاج الذين يأتونه مسالمين. وقد حفظ لنا التاريخ صوراً رائعة عن مقاومة فلسطين لغزوة الفرنجة التي لبست ثوب الصليب، تماماً كما نشهد اليوم هذه الصورة الرائعة من مقاومته للغزوة الصهيونية التي استغلت الدين اليهودي، وشوهت قيمه. ولم يحجم شعب فلسطين حين هدد بلاده جيش تيمورلنك الذي كان يدين بالإسلام عن أن يقاتل الباغي. وافق يومها ابن تيمية المسلمين جميعاً بالقتال، وحثهم عليه حين لمس تساؤل البعض منهم كيف يقاتل المسلم المسلم، فأجاب على هذا التساؤل بالآية الكريمة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي...﴾ مفرقاً بين المسلم المؤمن والمسلم الباغي⁽²⁸⁾. ويمكننا أن نلاحظ ونحن نقلب صفحات تاريخ القدس وفلسطين كيف استطاع شعب فلسطين أن ينتصر في النهاية ويطرد الغزاة من وطنه. كما يلفت النظر أن أرض فلسطين كانت تشهد المعارك الفاصلة التي تؤذن بارتداد الغزاة وهزيمتهم، والتي كانت تحدث بعد أن تسترد المنطقة قوتها وتنبعث قواها الروحية من جديد. وقد حفظ لنا التاريخ أسماء حطين التي أذنت ببداية اندحار الفرنجة عام 1187، وعين جالوت التي صدّت الغزو المغولي عام 1260، وعكا التي على أسوارها ارتدّ بونابرت وتراجع بالحملة الفرنسية عام 1799.

(28) أبو زهرة، ابن تيمية.

